قصة الكندىّ

حدثنى عمرو بن نُهيوىّ قال :

كان الكِنْدىّ لا يزال يقول للساكن ، وربَّما قال للجار : « إنّ فى الدّار امرأة بها حَمْل ، والوحْمى ربما أسقطَت من ريح القِدر الطيِّبة ، فإذا طَبختم فردُّوا شهْوتها ولو بغَرفة أو لَعقة ، فإنّ النفس يردُّها اليسير . فإن لم تفعلْ ذلك بعدَ إعلامى إيّاك ، فكفّارتك إن أسقطتْ غُرَّة : عبدٌ أو أمة ، ألزمتَ ذلك نفسَك أم أبيت » قال : فكان ربمايوافى إلى منزله مِن قِصاع السكّان والجيران ما يكفيه الأيام وكان * أكثرُهم يفطَن و يتغافَل . وكان الكندىّ يقول لعياله : أنتم أحسن حالاً من أرباب هذه الضياع . إنما * لكلّ بيتٍ منهم لوْن واحد وعندكم ألوان .

* قال : وكنتُ أتغدّى عنده يوماً ، إذ دخل عليه جارٌ له . وكان الجارُ لى صديقاً . فلم يعرض عليه الغَداء . فاستَحْييت أنا منه فقلتُ : لو أصبتَ معنا ممَّا نأكل . قال : قد — والله — فعلت . قال الكِندى : مابعد الله شىء . قال : فكَتفه والله — يأناعثمان — كَتْفاً لا يستطيعُ معه قَبضاً ولا بَسْطاً ، وتَركه ولو أكل لشَهِد عليه بالكُفر ، ولكان عندَه قد جَعل مع الله شيئاً * .

قال عَمْرو : بينا أنا ذاتَ يوم عندَه إذ سَمع صوت انقلابِ جرَّة مِن الدار الأخرى : فصاح : أىْ قصاف ! فقالت ، مجيبَةً له : بئر * وحياتك ! فكانت الجارية فى الذكاء ، أكثرَ منه فى الاستقصاء .

---

(٧) [و] كان ك ، < وان > كان (فانفلوتن) — (٩) فلن ب — (١٠ — ١٤) [قال وكنت . . شيئاً] ب — (١٦) < ماء > بئر ب

(٢ — ٦) « قال كان . . . أمة » عيون الأخبار ٣ : ٢٥٨

www.alkottob.com

قال مَعبد : نزلنا دارَ الكِندىِّ أكثرَ من سَنة ، *نروِّج له الكِراء* ونقضِى له الحوائج ، ونفى له بالشرط . قلت : قد فهمتُ تروِيج* الكراء ، وقضاءالحوائج . فما مَعْنى الوفاء بالشرط ؟ قال : فى شَرطه على السُّكَّان أن يكونَ له رَوْثُ الدابة ، وبعرُ الشاة ونَشْوار العلوفة ، وألا يُلقوا* عظماً ، *ولا يخرجو كُساحة* . وأن يكون له نَوى التمر ، وقشورُ الرُّمان ، والغَرفةُ من كلِّ قدر تطبخ للحبلى فى بيته . وكان فى ذلك يتنزَّل عليهم. فكانوا لطِيبه و إفراط بُخله وحُسنِ حديثه يحتملون ذلك .

قال معبد* : فبينا أنا كذلك إذ قدم ابن عمٍّ لى ومعه ابنٌ له ، و إذا *رقعةٌ منه قد جاءتنى : « إن* كان مُقام هذين القادِمين ليلةً أو ليلتين ، احتملناذلك . و إن كان إطماعُ السكَّان فى الليلة الواحدة، يجرُّ علينا الطمعَ فى الليالى الكثيرة » . فكتبتُ إليه : « ليس مقامُهما عندَنا إلا شهراً أونحوه » . فكتب إلىَّ : « إنَّ دارَك بثلاثين درهماً، وأنتم ستَّة ، لكلِّ رأس* خمسة . فإذ قد زدتَ رَجُلين، فلابدَّ من زيادة خمستين . فالدارُ عليكَ من يومِك هذا بأربعين » . فكتبتُ إليه : « وما يضرُّك من مقامُهما ، وثقلُ أبدانهما على الأرض التى تحمِل الجبال ، وثقَلُ مَؤنتهما علىَّ دونك ؟ فاكتب إلىَّ بعُذرك لأعرفَه ».ولم أدر أنى أهجُم على ما هَجَمت، وأنى أقع منه فيما وقعت فكتب إلى :

« الخصالُ التى تدعو إلى ذلك كثيرة ، وهى قائمة معروفة . من ذلك سرعةُ امتلاء البالوعة ، وما فى تنْقِيتها من شدَّة المؤنة . ومن ذلكأنّ الأقدامَ إذا كثُرت ، كثُر المشىُ على ظهور* السُّطوح المطيَّنة ، وعلى أرض البيوت المجصَّصة ، والصعودُ على الدَّرَج الكثيرة. فينقشِر لذلك الطين ، وينقلِع الجصّ ، وينكسر العتَب. مع انثِناء الأجذاع لكثرة الوطء وتكسُّرها لفرْط الثقل . و إذا كثُر الدُّخول والخروجُ والفتحُ والإغلاقُ والإقفالُ وجذبُ* الأقفال، تهشمت* الأبواب وتقلَّعت* الرزّات* . و إذا كثُر الصِّبيان، وتضاعف البوْش*

---

(١) يأخذ الكرى ب – (٢) أخذ ب – (٤) يخرجوا ك – [ولا . . . كساحة] ب – (٧) [و] إذا ك – (٨) < وفيها > ان ب – (١١) واحد ب – (١٧) ظهر ب – (١٩) وجدت ب – (٢٠) والأبواب تقلعت ب – [الرزات] ب – البوس ت

(١ – ٦) « قال معبد . . . ذلك » عيون الأخبار ٣ : ٢٥٩ .

نُزِعَت مسامير الأبواب ، وقُلِعت كلّ ضَبَّة ، ونزعت كلّ رَزَّة ، وكسرت كل حَوزة ، حفر فيها آبار * الزدو * ، وهشّموا بلاطَها بالمداحى . هذا مع تخريب الحيطان بالأوتاد وخَشَب الرفوف .

و إذا كثُر العيالُ والزوّار ، والضِّيفان والنُّدَماء ، احتيج من صَبِّ الماء واتِّخاذ الحبَبَة ٣ القاطِرة ، والجِرار الرَّاشِحة ، إلى أضعافٍ ما كانوا عليه . فكم من حائط قد تأكّل أسفله ، وتناثر أعلاه ، واسترخى أساسه ، وتداعى بنيانهُ ، من قَطْر حُبٍّ ورشح جرّة ، ومن * فَضل ماء البئر ، ومن سُوء التدبير . وعلى قَدر كثرتهم يحتاجون من الخَبيز والطبيخ ومن ٦ الوقُود والتسخين . والنارُ لا تُبقى وَلا تذَر . و إنما الدورُ حَطَبٌ لها . وكلُّ شيءٍ فيها من مَتاع فهو أُكُل لها . فكم من حريقٍ قد أتى على أصل الغلّة . فكلَّفتم أهلها أغلظ النفقة. ور بّما كان ذلك عند غاية العُسرة ، وَشِدَّة الحال . ور بَّما تعدَّت تلك الجنايةُ إلى دُور ٩ الجيران ، و إلى مُجاورة الأبدان والأموال . فلوتَرَك الناسُ حينئذٍ ربّ الدار وَقدرَ بليَّته ومقدارَ مصيبته ، * لكان عَسَى ذلك أن يكونَ مُحتَملاً * . ولكنهم يَتشاءمون به ، وَلا يزالون يَستَثقلون ذكره ، ويُكنرون من * لائمته وتَعْنيفه * . ١٢

نعم * ثمّ يتَّخذون المطابخَ فى العلالىّ على ظهور السُّطوح ، و إن كان فى أرض الدار فَضل وفى صَحنها متَّسع . مع ما فى ذلك من الخِطار بالأنفس ، والتغرير بالأموال ، وتعرُّض الحَرَم ليلةَ الحريق لأهل الفساد ، وهجُومِهم مع ذلك على سِرٍّ مكتوم ، وخبيء مستور : ١٥ من ضَيفٍ مُستخفٍ ، وربِّ دار مُتَوارٍ ، ومن شراب مكروه ، وَمن كِتاب مُتَّهم ، وَمن مال جمّ أُريدَ دفنُه ، فأعجَلَ الحريقُ أهله عن ذلك فيه * ، ومن حالاتٍ كثيرة ، وأمور لا يحبُّ الناسُ أن يُعرَفوا بها . ثم لا * ينصِبون * التنانير ، ولا يمكِّنون * للقدُور * ، إلّا * ١٨ على مَتْن السطح ، حيثُ ليسَ بينَها و بينَ القَصَب والخشب إلّا الطينُ الرقيق والشيء

---

(٢) الردو ك ، الدن (فان فلوتن) — (٦) [و] من ك — (١٢) لكان [عسى] ذلك [أن يكون] محتملا ب — (١٣) لومه ويعنفوه ب — (١٤) [نعم] ب — (١٨) [فيه] ب — (١٩) [لا] ب — [التنانير ولا يمكنون] ب — القدور ب — [إلا] ب .

www.alkottob.com

لا يقى * . هذا مع خِفَّة المؤنة فى إحكامها وأمن القلوب من المتالف بسَبَبها . فإن كنتم تُقْدِمون على ذلك منّا ومنكم وأنتم ذاكرون ، فهذا عَجَب * وإن كُنتُم لم تحفِلوا بما عليكم فى أموالنا ، ونَسيتم * ما عليكم فى أموالكم ، فهذا أعجب .

ثمّ * إن كثيراً منكم يُدافع بالكِراء ، ويماطِل بالأداء . حتّى إذا اجتمعت * أشهرٌ عليه فرّ وخلّى أربابَها جِياعاً ، يتقدّمون على ما كان من حُسن تقاضيهم وإحسانهم . فكان جزاؤهم وشكرُهم اقتطاعَ حقوقهم ، والذّهاب بأقواتهم .

ويَسكنها الساكنُ حين يسكنُها ، وقد كَسَحناها * ونظّفناها ، لتحسُن فى عَيْن المستأجر ، وليرغبَ فيها الناظر . فإذا خرَج ترك فيها من بلة وخراباً ، لا تصلِحُه إلا النفقةُ الموجِعة ، ثم لا يدع مَتْرساً إلا سرَقه ، ولا سَلَّماً إلا حمله ، ولا نِقضاً * إلا أخذه ، * ولا برادة إلّا مضى بها معه * ، ويَدَعُ * دقّ الثوب ، والدقّ فى الهاون * والمنحاز * * فى أرض الدار . ويدقّ * على الأجذاع والحواضِن والرّواشِن ، وإن كانت الدار مُقرمَدة أو بالآجرّ مفروشة ، * وقد كان صاحبُها * جعَل فى ناحيةٍ منها صَخْرة ، ليكون الدقُّ عليها ، ولتكون واقيةً دونها . دعاهم الهاون والقسوةُ ، والغشُّ والفُسولة إلى أن يدقوا حيث جَلَسوا ، وإلى ألّا يحفِلوا بما أفسدوا . لم يُعط قط لذلك أرْشاً ، ولا استحلّ صاحبَ الدار ، ولا أستغفر الله منه فى السرّ . ثم يستكثرُ من نفسه فى السنة إخراجَ عشرة دراهم ، ولا يستكثرُ من رب الدار ألفَ دينار فى الشهر * . أيذكرُ ما يصير إلينا مع قلّته ، ولا يذكرُ ما يصير إليه مع كثرته ؟

* هذا والأيام التى تنقض المبرَم ، وتُبلى الجِدّة ، وتفرّق الجميع المجتمع ، عاملةٌ فى الدور

---

(١) < الذى > لا يق ب — (٢) اعجب لك ب — (٣) نسيتم لك — (٤) من لك ب — جمعت (فان فلوتن) — (٧) كنسناهاب — (٩) مسارات — (١٠) [ولا برادة . . . معه] ب — و < لا > يدع ب ، (فان فلوتن) — المنجاز لك ب ، المنجان (فان فلوتن) — (١١) ويدع لك — (١٢) ويكون صاحب الدار ب — (١٦) الشهر ، صححنا : الشرك ، الشراء ب (فان فلوتن) — (١٨) أول سقط فى ب إلى قوله : ولا تأمنوهم على حال (ص ٩٠ : ١٨)

www.alkottob.com

كما تعملُ فى الصخور ، وتأخذ من المنازل كما تأخذُ من كلِّ رطب و يابس ، وكما تجعلُ الرَّطب يابساً ، واليابس * هشيماً ، والهشيمَ مضمَحِلاً .

ولانهدام المنازل غايةٌ قريبةٌ ، ومدَّة قصيرة . والساكنُ فيها هو كان المتمتعَ بها ، والمنتفعَ بمرافقها . وهو الذى أبلى جِدَّتها و < ذهب > * بجلاها ، و به هَرِمت وذهبَ عمرها ، لسوء تدبيره . فإذا قسْنا الغُرم عند انهدامها بإعادتها ، و بعد ابتدائها ، وغُرم ما بين ذلك من مرمَّتها و إصلاحها ، ثم قابلنا بذلك ما أخذنا من غلاَّتها ، وارتفَقْنا به من إكرائها ، خرج على المُسكِن من الْخُسران ، بقدر ما حصَل للساكن من الربح . إلّا أن الدراهم التى أخرجناها من النفقة كانت جملة ، والتى أخذناها على جهة الغلَّة جاءت مقطّعة . وهذا مع سُوء القضاء ، والإحواج إلى طُول الاقتضاء ، ومع بغض الساكن للمُسكن ، وحبِّ المُسكنِ للساكن . لأن المُسكن يحبُّ صحَّة بدن الساكن ، ونفاق سوقه إن كان تاجراً ، وتحرُّك صناعتِه إن كان صانعاً . ومحبَّةُ الساكن أن يشغلَ الله عنه المسكن كيفَ شاء . إن شاء شغله بعينه * ، و إن شاء بزمانه ، و إن شاء بحبْس ، و إن شاء بمَوْت ومدارُ مُناه أن يُشغل عنه . ثمَّ لا يُبالى كيفَ كان ذلك الشُّغل ، إلاّ أنه كلَّما كان أشدّ كان أحبّ إليه ، وكان أجدَر أن يأمَن ، وأخلقَ لأن يسكُن . وعلى أنه إن فتَرتْ سُوقُه أو كسَدَت صِناعته ، ألحّ فى طلب التخفيف من أصل الغلَّة ، والحَطِيطة ممّا حصل عليه من الأجرة . وعلى أنه إن أتاه اللهُ بالأرباح فى تجارته ، والنَّفاق فى صِناعته ، لم يَرَ أن يزيد قيراطاً فى ضَريبته ، ولا أن يُعجِّل فَلساً قبل وقته .

ثم إن كانت الغلَّة صِحاحاً دفعَ أكثرها مقطَّعة ، و إن كانت أنصافاً وأرباعاً دفعها قُراضه مفتَّتة . ثم لا يدعُ مزبَّقاً * ولا مكحلاً ولا زائفاً ولا ديناراً بَهْرَجاً إلّا دسّه فيه ودلّسه عليه ، واحتالَ بكلِّ حيلة ، وتأنَّى له بكلِّ سَبَب . فإن ردُّوا عليه بعد ذلك شيئاً ، حلفَ بالغَموس أنه ليسَ من دراهمه ولا من ماله ، ولا رآه قطّ ولا كان فى مِلكه . فإن كان الرسول

---

(٢) [واليابس] (فان فلوتن) — (٤) و < ذهب > بجلاها ، صححنا : بجلاها ك — (١٢) بغيبه (مرسيه) — (١٩) مرتعاً ك .

جارية ربِّ الدار أفسدها وربما أحبلها ، وإن كان غلاماً خدَعه وربما شَطَر به . هذا مع التشرّف * على الجيران والتعرُّض للجارات ، ومع اصطياد طُيورهم وتعريضِنا لِشكايتهم . وربَّما استضْعَفَ عقولهم ، وطمِع فى فَسادهم وعَيْبهم . فلا يزال يضربُ لهم بالإسلاف ، ويُغرِيهم بالشهَوات ، ويفتحُ لهم أبواباً من النفقات ، ليُغْيِيَهم * ويربح عليهم . حتى إذا استَوْثَق منهم ، أعجلهم وحزَق بهم ، حتى يتَّقوه ببَيْع بعض الدار ، أو باسْتِرْهان الجميع ، ليربحَ — مع الذهاب بالأصل — السلامة ، مع طول مُقامه — ، من الكراء . وربما جعله بيعاً فى الظاهر ، ورهناً فى الباطن ، فحينئذٍ يقتضيهم * دون المهلة ، ويدَّعيها قبل الوقت .

وربَّما بالغ من استِضْعافه واستِثْقاله لأداء الكِراء ، أنْ يدعى أن له شَقِيصاً وأن له يداً ليصيرَ خَصْماً من الخصوم ، ومنازعاً غير غاصب . وربما أخذهم * ومعه امرأةٌ يفجرُ بها ، فيجعَلُ استئجارَ البيوت وتصفُّح المنازل ، علة لدُخولها والمقام ساعة فيها . فإذا استقرّ فى المنزل ، قَضى حاجتَه منها ، وردَّ المفتاح . وربما اكترى المنزلَ وفيه مرمَّة ، فاشترى بعضَ ما يُصلِحُها ، ثم يتوخّى عاملاً * جيِّدَ الكُسوة ، وجيراناً * أصحابَ آنية وآلة ، فإذا شُغِل العاملُ وغَفَل ، اشتَمَل على كلِّ ما قدَر عليه ، وتركهم يتسكّعون . وربما استأجَر إلى جَنْب سجن لينقُب أهلُه إليه ، وإلى جَنب صرّاف لينقبَ عليه ، طلباً لطُول المُهلة والستر ، ولطول المدة والأمن . وربَّما جَنى الساكنُ ما يَدْعو إلى هَدْم دار المُسكن ، بأن يقتل قتيلاً أو يجرَح شريفاً ، فيأتى السلطانُ الدَّار — وأربابُها إمّا غُيَّب وإما أيتام وإما ضُعَفاء — فلا يصنع شيئاً دون أن يسوِّيها بالأرض .

وبعد فالدُّور ملقّاة ، وأربابُها منكوبون ومُلَقَّون . وهم أشدُّ الناس اغتراراً بالناس ، وأبعدُهم غايةً من سَلامة الصدور . وذلك أن من دفَع داره * ونقْضها وساجَها وأبوابها * ، مع حديدها وذهب سقوفها ، إلى مجهولٍ لا يُعرف ، فقد وَضَعها فى مَواضع الغَرَر وعلى

(٢) التشرف ، صححنا : الشرف ك — (٤) ليعيبهم : ليعيبهم ك ، (فان فلوتن) ، ليغنهم (دى جويه) — (٧) يقتضيهم ، صححنا : يقطنهم ك ، يفظ بهم (فان فلوتن) — (٩) كذا فى ك ، ولعلها — كما يدل السياق — : « وربما أخذ < المفتاح > منهم » . (١٢) عاملا (فان فلوتن) : غلاما ك — وحيرانا ك ، ولعلها وصبيانا — (١٩) ونقضه وساجه وأبوابه ك

أعظم* الخطر . وقد صار فى معنى المُودِع ، وصار المُكتَرِى فى موضع المودَع . ثم ليستْ الخيانة وسُوء الوَلاية إلى شىء من الوَدائع أسرعَ منها إلى الدور . وأيضاً إنّ أصلح السكان حالاً من إذا وجد فى الدار مَرمّة ففوّضوا* إليه النفقة ، وأن يكونَ ذلك محسوباً عند الأهلَّة ، الذى* يُشفِّف فى البناء ويزيد فى الحساب . فما ظنّك بقوم هؤلاء أصلحُهم وهم خِيارهم . وأنتم أيضاً ربما* أكْرَيتُمْ* مستغلّات غيركم ، بأكثرَ مما اكتريتموها منه . فسِيروا فينا كسيرتِكم فيهم ، وأعطونا من أنفُسِكم مثلَ ما تريدونه* منهم . وربما بنيتُم فى الأرض ، فإذا صار البناء بنيانَكم — وإن كانت الأرضُ لغيركم — ادّعيتم الشركة ، وجعلتموه كالإجارة ، وحتى تصيِّروه كتِلاد مال أو مُورَث* سَلَف .

وجُرمٌ آخر ، وهو أنكم أهلكتُم أصول أموالنا ، وأخربتم غلّاتِنا ، وحطَطتم بسُوء معاملتِكم أثمان دورنا ومُستغلّاتنا ، حتى سَقَطت غلاتُ الدور من أعين المياسير وأهل الثّروة ، ومن أعيُن العوامّ والحُشوة . وحتى تدافعوكم بكل حيلة ، وصرَّفوا أموالهم فى كلّ وجه ، وحتّى قال عُبَيد اللهِ بنُ الحسن قولا أرسله مَثَلا ، وعاد علينا حجّة وضررا . وذلك أنه قال: « غلّة الدار مسكة* وغلّة النخل كَفاف، وإنما الغلّة غلّة الزرع والنّسولتين». وإنما جرَّ ذلك علينا حسنُ اقتضائنا ، وصَبرُنا على سوء قضائكم . وأنتم تقطّعونها علينا وهى عليكم مُجملة ، وتُلوونا بها وهى عليكم حالّة . فصارت كذلك* غلّات الدور — وإن كانت أكثرَ ثمناً ودَخْلاً — أقلَّ ثمناً وأخبثَ أصلاً ، من سائر الغلّات .

فأنتم* شرٌّ علينا من الهِند والروم ومن التُّرك والدَّيْلم ، إذ كنتُم أحضرَ أذى وأدومَ

(١) عظم (فان فلوتن) — (٣) فوضوا ك ، فوضعوا (فان فلوتن) — (٤) [الذى] (فان فلوتن) — (٥) ربما (مرسيه) : إنما ك — اكبر تم ك — (٦) ترويدونه ك ، تزويدوا به (فان فلوتن) ، ترتادونه (مرسيه) — (٩) موروث (فان فلوتن) — (١٣) مسكة (عيون الأخبار) ؛ مسألة ك — (١٥) لذلك (فان فلوتن) — (١٧) وأنتم (فان فلوتن) .

(١٤) « غلة . . . النسولتين » عيون الأخبار ١ : ٢٥٢ ، العقد الفريد ٣ : ٣٢ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

www.alkottob.com

شرًّا . ثم كانت هذه صفتُكم وحِلْيتكم ومعاملتُكم فى شىء لا بدَّ لكم منه ، فكيفَ كنتُم لو امتُحِنتم بما لكم عنه مندوحة والوجوه لكم فيه مُعرِضة ، وأنتم فيه بالخيار وليس عليكم طَريقٌ للاضطرار *؟

وهذا مع قولكم : إن نزولَ دورِ الكِراء أصوبُ من نزول دُور الشراء . وقلتم : لأن صاحبَ الشراء قد أغلق رهنَه وأشرط نفسَه ، وصار بها ممتَحناً و بثمنها مرتَهَناً . ومن اتَّخذ دارًا ، فقد أقام كَفيلاً لا يَخفُر وزعيماً لا يغرم . وإن غاب عنها حنَّ إليها ، و إن أقام فيها ألزمته المُؤَن وعرَّضته للفِتَن : إن أساءوا جوارَه ، وأنكَر مكانَه ، وبَعُد مُصلَّاه ، ونأت * عنه سوقُه ، وتفاوتَتْ حوائجُه ، ورأى أنه قد أخطأ فى اختيارها على سواها ، وأنه لم يوفَّق لرُشده حين آثرها على غيرها . و إنَّ من كان كذلك ، فهو عبدُ داره وخوَل جاره. وأن صاحبَ الكراء الخيارُ فى يده والأمرُ إليه ، فكلُّ دار هى له متنزّه إن شاء ، ومتجر إن شاء ، ومَسْكن إن شاء . لم يحتَمِل فيها اليسيرَ من الذلّ ، ولا القليلَ من الضَّيْم ، ولا يعرف الهوَان ، ولا يُسَام الخسْف ، ولا يحترِسُ من الحسَّاد ، ولا يدارى المتعلِّلين . وصاحبُ الشراء يجرَّع المُرار ، ويُسْقى بكأسِ الغيظ ، ويُكدُّ بطلَب * الحوائج ، ويحتَمِل الذّلة و إن كان ذا أنفَة . إن عفا عفا على كظْم ، ولا يُوَجَّه ذلك منه إلّا إلى العَجْز ، و إن رام المكافأة تعرَّض لأكثر مما أنكره . قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم —: « الجارُ قبل الدار ، والرَّفيق قبلَ الطريق » .

وزعمتُم أنّ تسقُّط الكِراء أهون ، إذا كان شيئاً بعدَ شىء . وأنَّ الشدائد إذا وقعت جُملة ، جاءت * غامرة للقوَّة * فأما إذا تقطَّعُ * وتفرَّق ، فليس يكترثُ لها إلَّا من تفقَّدها وتذكرها . ومال الشِّراء يخرج جُملة ، وثَلمته فى المال واسعة وطَعنته نافذة . وليسَ كلُّ خَرق يُرقَع ، ولا كلُّ خارج يرجِع . وأنه قد أمِن من الحرق * والغرَق ومبل * أسطُوان وانقِصاف سهم واسترخاء أساس وسُقوط سِترة وسوء جوار وحَسَدِ مُشاكل ،

---

(٣) الاضطرار (فان فلوتن) — (٨) ومات (فان فلوتن) — (١٣) ويكد الطلب ك — (١٣) وجاءت ك — لتقوت (مرسيه) : « وجاءت غامرة لتقوت » — انقطع ك — (٢٠) الحرق ك (فان فلوتن) — مثل ك .

www.alkottob.com

وأنه إمَّا لا يزالُ فى بلاء ، وإما أن يكونَ متوقِّعاً لبلاء . وقلتُم : إن كان تاجراً فتصريفُ ثمن الدار فى وجُوه التِّجارات أربح ، وتحويلُه فى أصناف البياعات أكيَس . وإن لم يكن تاجراً ، ففى ما وصفناه له ناهٍ وفيما عَدَدنا له زاجر . فلم تمنعكم حُرمة المساكنة وحقّ المجاورة والحاجة إلى السُّكنى ومُوافقة المنزل ، أن أشرتُم على الناس بتَرْك الشراء . وفى كَساد الدُّور فَساد لأثمان الدور ، وجُرأة للمستأجر ، واستِحْطاط من الغلّة ، وخسرانٌ فى أصل المال . وزعمتم أنكم قد أحسنتم إلينا حينَ حثثتم الناس على الكِراء ، لما فى ذلك من الرَّخاء والنماء . فأنتم لم تريدوا نفعَنا بترغيبهم فى الكِراء ، بل إنما أردتم أن تضرُّونا بتزهيدِكم فى الشِّراء . وليس ينبغى أن يُحكم عن كلِّ قوم إلا بسبيلهم* ، وبالذى يغلِبُ عليهم من أعمالهم .

فهذه الخِصال المذمومة كلّها فيكم ، وكلّها حُجَّة عليكم ، وكلّها داعيةٌ إلى تُهَمتكم وأخذ الحِذْر منكم . وليست لكم* خَصلة محمودة ، ولا خَلَّة فيما بيننا وبينكم مَرضيَّة .

وقد أرَيْنا كم أنَّ حُكم النازلين كحُكم المقيمين ، وأنّ كلَّ زيادة فلها نصيبٌ من الغلّة . ولو تغافلتُ لك يا أخا أهل البَصرة عن زيادة رَجُلين لم أُبعِدْك — على قَدْر ما رأيتُ منك — أن تلزمَنى ذلك ، فيما يتبيَّن* ، حتى يصيرَ كِراء الواحد ككِراء الألف، وتصيرَ الإقامة كالظَّعن والتفريغُ كالشغل . وعلى أنى لو كنتُ أمسكت عن تقاضيك وتغافلتُ عن تعريفك ما عليك ، لذهب الإحسانُ إليك باطلا . إذ كنتَ لاترى للزيادة قدراً .

وقد قال الأوّل :

والكُفرُ مَخبَثةٌ لنفس المُنعِمِ

---

(٨) سبيلهم ك — (١١) له (فان فلوتن) — (١٤) لهن ك .

(١٩) « والكفر . . . المنعم» معلقة عنترة العبسى، والمصراع الأول : « نبئت عمراً غير شاكر نعمتى »

وقال الآخر :

تَبدَّلتُ بالمعرُوف نُكْراً وربَّما تنكّر للمعروفِ مَن كان يُكفر

أنت تطالبنى ببُغض المُعتزِلة للشِّيعة ، وبما* بينَ أهل الكوفة والبَصرة ، وبالعَداوة التى بين أسد وكِندة ، وبما فى قلبِ الساكن من استثقال المُسكن . وسيُعِينُ الله عليك . السلام » .

قال إسماعيلُ بنُ غَزوان : لله درُّ الكِندىّ ! ما كان أحكمَه وأحضرَ حجّته ، وأنصحَ جيبَه وأدوم طريقَته !

رأيته — وقد أقبلَ على جَماعة مافيها إلّا مفسد ، أو من يزيِّن الفسادَ لأهله . مِن شاعر بوُدّه أن الناس كلّهم قد جاوزوا حدَّ المسرفين إلى حُدود المجانين ، ومن صاحب تفقيع* واستِئكال ، ومن ملّاق متقرِّب — فقال :

تسمّون من مَنَع المال من وجُوه الخطأ ، وحصَّنه خَوفاً من الغِيلة ، وَحفظه إشفاقاً من الذلّة بخيلا ، تريدون بذلك ذامّه وشينه ؟ وتسمُّون من جَهِل فضلَ الغِنَى ، ولم يعرِف ذلّة الفقر ، وأعطى فى السرَف ، وتهاون بالخطأ ، وابتذَل النعمة ، وأهان نفسَه بإكرام غيره جَواداً ، تريدون بذلك حَمدَه ومدحه ؟ فاتّهموا على أنفسِكم من قدّمكم على نفسه . فإنّ من أخطأ على نَفسه ، فهو أجدرُ أن يخطِئ على غيره ، ومن أخطأ فى ظاهر دُنياه وفيما يوجدُ فى العَين ، كان أجدر أن يخطِئ فى باطِن دِينه وفيما يوجد بالعقل . فمدحتم من مدح* صُنوف الخطأ ، وذَممتم من جَمَع صُنوف الصَّواب . فاحذروهم كل الحذر ولا تأمنوهم على حال* .

قال إسماعيل ، وسمعتُ الكِندىّ يقول :

إنما المالُ لمن حَفِظه ، وإنما الغنى لمن تمسّك به . ولحفظِ المال بُنِيت الحيطان .

---

(٣) وربما ك — (٩) تفقيع ، صححنا : تنقيع ك — (١٧) مدح ك : جمع (فان فلوتن) — (١٨) آخر السقط فى ب : [هذا والأيام . . . حال] .

www.alkottob.com

وعلّقت * الأبواب واتّخذت الصّناديق ، وعُملت الأقفال ، ونُقِشت الرُّشوم * والخواتيم ، وتُعلِّم الحساب والكِتاب . فَلِمَ يتّخذون هذه الوقايات دونَ المال ، وأنتم آفته وأنتم سوسه وقادحه * ؟ وقد قال الأول ، احرس أخاك إلّا من نفسه ولكن احسُب أنك قد أخذته في الجواسق * ، وأودَعته الصُّخور ، ولم يشعُرْ به صَديق ولا رسول ولا مُعين . من لك بألا تَكونَ أشدَّ عليه من السارق وأعدى عليه من الغاصب ؟ واجعلْك قد حصّنته من كلِّ يد لا تملكُه ، كيف لك من أن تحصّنه من اليد التي تملكه ، وهي عليه أقدَر ودَواعيها * أكثر ، وقد علِمنا أنّ حِفظ المال أشدُّ من جَمعه ؟ وهل أُتِيَ الناس إلا من أنفسهم ، ثم ثقاتهم ؟ فالمالُ * لمن حفِظه ، والحسرةُ لمن أتلفه . وإنفاقهُ هو إتلافه ، وإن حسّنتموه بهذا الاسم وزيّنتموه بهذا اللّقب .

*وزعمتُم أنما سمّينا البخلَ إصلاحاً * والشحّ اقتصاداً ، كما سمّى قومٌ * الهزيمة انحيازًا والبِذاء عارِضة، والعَزل عن الولاية صَرْفاً ، والجائرَ على أهلِ الخراج مُستقصياً . بل أنتم الذين سمّيتم السَّرَف جوداً * ، والنفجَ * أريحيّة، وسوء نظر المرء لنفسه ولعَقِبه كرماً . قال رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — : « ابدأ بمن تعول » . وأنتَ تريدُ أن تغنيَ عِيال غيرِك بإفقارِ عِيالك ، وتُسعِد الغريب بشِقوة القَريب ، وتتفضّل على من لا يعدِل عنك ، ومَن لو أعطيتَه أبداً لأخذ أبدًا .

قد عَلِمتم ما قال صاحبُنا لأخي تَغلِب ، فإنه قال : يا أخا تغلِب إني والله كنت أجرى ماجرى هذا الغِيل ، وأجْرى وقد انقطَع النّيل . إني والله لو أعطيتُك ، لما وصلت إليك ، حتى أتجاوزَ من هو أحقُّ بذلك منك . إني لو أمكنتُ الناسَ مِن مالي لنَزَعوا

---

(١) وغلقت ب — الرشوم ب : الرسوم ك — (٣) قارحه (فان فلوتن) — (٤) الجواسيق ب — (٧) ودواعيه ك ب — (٨) والمال (فان فلوتن) — (١٠) أول سقط في ب — صلاحا (فان فلوتن) — يوم ك — (١٢) السر وجودا ك — والنفح ك ، والنفخ (فان فلوتن) —

(٩٠ : ٢٠ — ٩١ : ٢) « ولحفظ المال . . . سوسه » الإشارة إلى محاسن التجارة ص ٦٧ ، ط المؤيد —
(١٦—٩٢ : ١) « قد علمتم . . . ما منعته الناس » العقد الفريد ٣ : ٢٣٩ .

www.alkottob.com

دارى طُوبة طُوبة . إنه والله ما بَقِيَ مَعى منه إلا ما منعتُه الناس . ولـكنّى أقول : والله إنى* لو أمكنتُ الناسَ من نَفسى لادّعوا رقّى ، بعد سَلب نِعمتى .

قال إسماعيل : وسَمِعته يقول :

عجبت لمن قلّت دراهمُه كيفَ ينام . ولـكن لايستوى من لم يَنم سروراً ، ومن لم ينم غمًّا . ثم قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى وصيّة المرء يومَ فقره وحاجَته ، وقبلَ أن يُغَرغر : « الثلثُ ، والثلثُ كثير » . فاستحسَنت الفُقَهاء ، وتمنّى الصالحون أن نَغُضَّ* من الثلُث شيئاً ، لاستِكثار رَسول الله — صلى الله عليه وسلم — الثلث ، ولقوله : « إنك إن تدَع عِيالَك أغنياء خيرٌ من أن تدَعَهم عالةً يتكفّفون الناس » ورسولُ الله — صلّى الله عليه وسلم — لم يرحَم عِيالَنا إلّا بفَضل رحمتِه لنـا . فـكيفَ تأمرُونى أن أوثِرَ أنفسَكم على نفسى ، وأقدِّم عِيالـكم على عيالى ، وأن أعتقدَ الثناء بَدَلا من الغِنى ، وأن أكنِز الريح وأصطَنِـع السراب ، بدلا من الذَّهَب والفِضَّة* .

قال إسماعيل : وسمعته يقول لِعياله وأصحابه :

اصبِروا عن الرُّطَب عند ابتدائه وأوائله ، وعن باكورات الفاكهة . فإن للنفس عند كلِّ طارف* نزوة ، وعندَ كلِّ هاجم بدوة* ، وللقادم حَلاوة وفَرحة ، وللجديد بَشاشة وغِرّة . فإنك متى رَدَدْتها ارتدّت ، ومتى ردعتها ارتدَعت . والنفسُ عَزوف ، ونفور ألوف ، وما حمّلتها احتَملت وإن أهملتَها فسدت . فإن لم تـكفّ جميعَ دواعيها وتحسِم جميعَ خواطرها ، فى أول ردّة ، صارت أقلَّ عدداً وأضعفَ قوة . فإذا أثّر ذلك فيها ، فعظها فى تلك الباكورة بالغلاء والقلّة . فإنّ ذكرَ الغلاء والقلّة حُجّة صَحيحة وعلّة عاملة فى الطبيعة . فإذا أجابتك فى الباكورة فسُمْها مثلَ ذلك فى أوائل كثرتها ، واضرِب نُقصان* الشهوة ونقصان قوّة الغلبة* ، بمِقدار ماحَدَث لها من الرُّخص والـكثرة ،

---

(٢) انى ، صححنا : ان ك — (٧) نغض ك : ننقص (فان فلوتن) . — (١١) آخر السقط فى ب : « وزعمتم انما سمينا . . . والفضة » — (١٤) طارق ب — بدوة ، صححنا : نزوة ك ، ثروة ب — (٢٠) واصرف يقظان ب — الطبيعة ب

(٥ — ٨) « قال رسول الله . . . يتكففون الناس » صحيح البخارى ، كتاب الوصايا ، الحديث رقم ٢٥٥٥

www.alkottob.com

فلستَ تلقَى على هذا الحسابِ من معالجة الشهوة فى غدك* ، إلا مثلَ ما لقيتَ* منها فى يَومك* ، حتى تنقضىَ أيام الفاكِهة وأنت على مثل ابتداء حالك وعلى أول مُجاهَدتك لشَهوتك . ومتى لم تعدَّ أيضاً* الشهوة فتنة والهوى عدوًّا ، اغتررتَ بهما وضُعفتَ عنهما ، وائتمنتهما على نفسِك ، وهما أَحْضَرُ عدوّ وشَرُّ دخيل .

فاضمَنوا لىَ النّزوة الأولى* ، أضمن لكم تمام الصبر وعاقِبة اليُسر ، وثباتَ العزِّ فى قلوبكم والغِنى فى أعقابكم ؛ ودَوام تعظيم الناس لكم . فإنه لو لم يكن من منفعة الغنى إلّا أنك لا تزالُ معظّماً عند مَن لم ينلْ مِنك قطُّ دِرهماً ، لكان الفضلُ فى ذلك بيِّناً والربح ظاهراً . ولو لم يكن من بَركة النّزوة ومن منفعة اليُسر ، إلا أن ربَّ المال الكثير لو اتّصل بمَلِك كبير ، وفى* جلسائه من هو أوجبُ حُرمة، وأقدمُ صُحبة وأصدق محبة ، وأمتع إمتاعاً، وأكثر فائدة وصواباً ، إلاّ أنه خفيفُ الحال قليلُ ذاتِ اليد ؛ ثم أراد ذلك الملك أن يقسم مالا أو يوزِّع بينهم طُرَفاً ، لجعل حظَّ الموسر أكثر ، وإن كان فى كلِّ شىء دون أصحابه ، وحظّ المخِفّ أقل،وإن كان فى كلِّ شىء فوقَ أصحابه .

* قد ذكرنا رِسالة سَهل بنِ هارون ، ومذهَب الحرامى ، وقِصَص الكِندىّ ، وأحاديث الحارثى ، واحتجاجاتهم ، وطرائفَ بُخْلهم* ، وبدائع حِيَلهم* .

---

(١) عنك ك، فى عدل ب، عندك (فان فلوتن) –(١–٢) ثمنها فى يومك ب، منها فى نومك (فان فلوتن) – (٣) فيض ب – (٥) الثروة [الأولى] ب – (٩) [و] فى (فان فلوتن) – (١٤ – ١٥) [قد ذكرنا . . . حيلهم] ب – (١٥) نحلهم (فان فلوتن) .

www.alkottob.com